لوحته «الملوّنة» حلبة رقص او صراع تخرج عن طاعته أحياناً

معاذ الألوسي: رحلة البحث عن مكان بين الوجوه والإشارات

بيروت – ريم الجندي

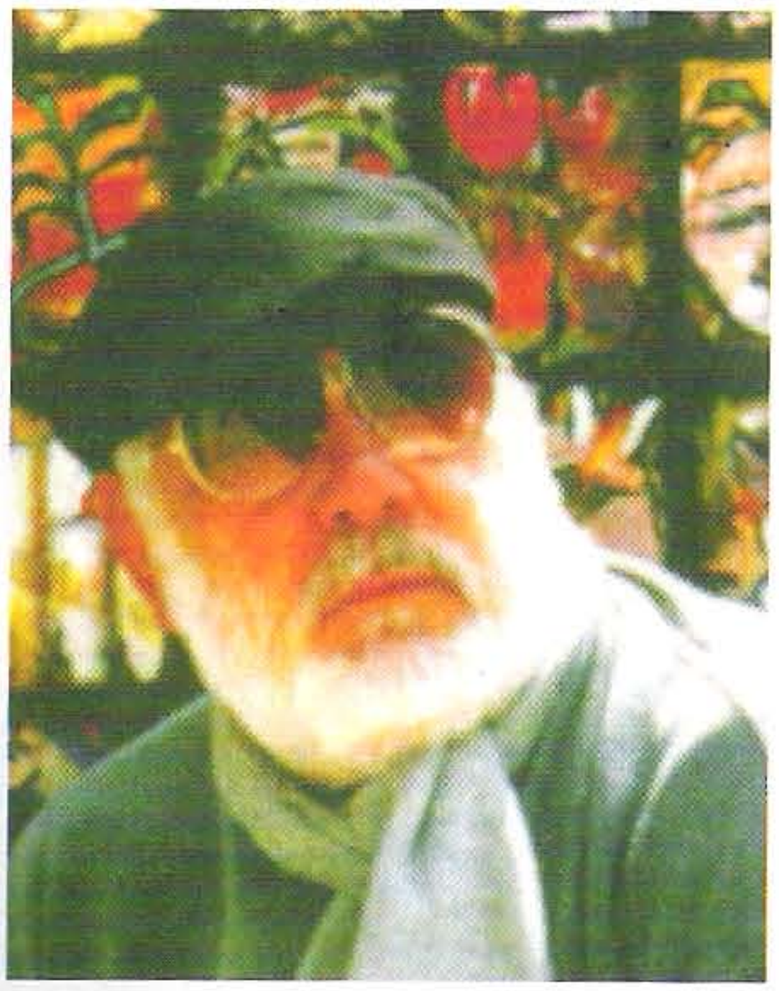

الألوسي فنان يستكشف رموز الترحال.

أول انطباع تخلفه لوحة معاذ الألوسي عند اللقاء بها عن بعد، هو انها لوحة «ملونة». وقد نشعر، خلال التجوّل في أنحاء معرضه البيروتي الأخير (٦١ لوحة من مواد مختلفة وأكريليك على قماش، في «غاليري إيبروف دارتيست»)، ان هذا الفنّان العراقي المقيم في قبرص لا يترك او ينسى لوناً الا ويضعه على المساحة أمامه، الأساسية منها وكل التفرعات الممكنة، لتصير هذه المساحة حلبة رقص او صراع حيث استحالة التجاور من دون صدام. عالم ملون الى درجاته القصوى تختلط فيه الأمزجة والمناخات والبحث المؤكد عن التنوع... تنوع يترسخ مع الاقتراب من اللوحة، حيث للون معنى مرادف آخر من خلال ملمس لا يستقر على حال، أهم ما فيه ابتعاده عن أن يكون مملاً. خشن، ناعم، نافر، مسطح... يخرج من الخلفية الى المقدمة ليتم بناء علاقة وطيدة بين الطبقات المتتالية للسطح، فيتآلف ويتجانس او يتضارب فتسير العين او اليد على مساحة من الترابية الحسية هي أقرب الى ان تصير ايقاعاً.

ثم يأتي اكتشاف الرموز وربطها ببعضها على تتالي اللوحات. رموز يصر الألوسي على استعادتها وتكرارها كإشارات لهواجسه المحركة لقيام اللوحة. الترحال والسفر حقائب على أهبة الاستعداد للمغادرة، التنقل والنظر الى الأمكنة عبر حركة مرور سريعة لدراجة تعبر المكان ولا تستقر فيه، البحث عن مكان واستعادة ملحة للذاكرة من خلال البحث عن تفاصيل الأشياء المتروكة على طاولات في زوايا بيوت لم تعد موجودة، العقد والمكحلة وغيرها من بقايا الأشخاص الذين رحلوا او رحلنا عنهم. ثم هناك الوجوه التي تصبح هي المكان. كأن أشخاص الألوسي بتنوع وجوههم وتكرارها هي التعبير الوحيد الباقي للماضي والحاضر واختلاطهما في مكان واحد تتكثف فيه اللحظة وتتراكم كل الأزمنة لتصبح وحدها «الانتماء». والألوسي ينتمي لوجوهه... فيبدو حين «يخونها»، كأنه يدخل في منطق آخر لتأليف لوحته.

ولهذه اللوحة منطقين مختلفين بوضوح، واحدهما قائم على التكرار والتنوع، وعلى تجاور وحدات صغيرة تتركب اللوحة من خلال تجمعها. والآخر مساحة كبيرة تبدو وكأنها تكبير لإحدى هذه اللوحات التي كان يمكن لها ان تتجاور، لكنها هنا لا تفعل، بل تدخل في السرد وتكريس الرمز كأساس للوحة. كأننا بالألوسي يفقد سيطرته على أدواته الصغيرة التي كان يبدو أنّه يستعملها بقدرة من يؤسس عالماً، فإذا بها تصبح هي الأقوى، وتخرج عن طاعته إذ تكبر وتنفلت من بين قبضتيه.

وقوة الألوسي تكمن في انشاء اللوحة وبنائها، في تشكيلها من خلال التركيب الهندسي حيث المتعة في تناقض هندسية المربعات المصطفة بانتظام والتي هي الوحدة المكررة للشكل مع ما يحتويه هذا المربع ضمن اطاره المحدد من انفلات وحرية في اللون والملمس والمزاج. تناقض لذيذ بين الخطوط التي تقسم او تجمع المساحة الكبيرة الواحدة في الطول والعرض، كشبكة او قضبان. وبين غياب أي خط او استواء في داخل الحيز الحر القائم على النبض والحركة التلقائية في وضع الألوان والخامات على مسطح اللوحة، حيث الجنون ينظمه الاطار.

وللتناقض دائماً سحره، وهو السحر الذي يعمل الألوسي على ابرازه واستخدامه من اجل ان يتولد للوجوه عنده هذا الاغراء المحفز على الاكتشاف. فالوجه هنا ملتصق مع خلفيته، محفور فيها، يخرج منها بإشارات ملامحه، وليس بحضوره الكامل. هي اشارات مكثفة لوجه يدل عليه مجرد التذكير به، وليس وجوده نفسه. وجه يرسمه الألوسي وكأنه يمحوه او يستعيده من ذاكرة مشوشة مغبشة، فيصبح الحضور بلا ثقل على الاطلاق، ويسهل حينها الدخول في علاقة شبيهة بلعبة اكتشاف، بكل ما يمكن لـ «اللعب» ان يحمل من لهو خفيف وحزن هادئ مستقر. إنّنا أمام وجوه ترسم بالمحاة، فهي وحدها دلالات المكان. ■

لوحة «إلى ينكيباريان» المهرّج الأرمني الشهير: مكمن التركيب الهندسي.